دور النشر فى الإفادة من مصادر المعلومات فى العصر العباسى

إعداد:
ناصر عبد الرحمن
مدرس مساعد/ قسم المكتبات والوثائق والمعلومات
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تمهيد:

يسلك المشتغلون بالبحث العلمى فى اتصالاتهم العلمية التى يهدفون من خلالها الحصول على المعلومات، سبيلين هما الاتصال الوثائقى، والاتصال غير الوثائقى. ويطلق المتخصصون المهتمون[١]، [٢] بالاتصال العلمى على هذين السبيلين اصطلاح القنوات الرسمية: Formal channels للسبيل الأول، واصطلاح القنوات غير الرسمية: Informal channels للسبيل الثانى. والفرق الرئيسى بين هذين السبيلين أو بين هذه القنوات التى يتم من خلالها الاتصال العلمى وتبادل المعلومات بين المشتغلين بالبحث العلمى، هو أن من يسلك السبيل الأول يعتمد فى الأساس على مصادر المعلومات الوثائقية، وهى تلك الأوعية التى تصب فيها نتائج ملاحظات الباحثين وتصوراتهم للعالم المحيط بنا بكل جوانبه، وخبراتهم فى التعامل مع هذه الجوانب الطبيعية والبشرية[٣]. ويتسع المعنى المقصود بهذه الأوعية ليشمل جميع أنواع الوثائق التى تشكل الذاكرة الخارجية اتى تختزن حصيلة المعرفة البشرية[٤]، وتشمل هذه الفئة من مصادر المعلومات الإنتاج الفكرى المدون كالكتب، ومقالات الدوريات، وبحوث المؤتمرات، وبراءات الاختراع، والرسائل الجامعية وغيرها، كما تشمل أيضا أشكال الإنتاج الفكرى الأخرى المسموعة أو المرئية. أما من يسلك السبيل الآخر لتبادل المعلومات والحصول عليها؛ فإنه يعتمد على المصادر غير الوثائقية، ويقصد بها تلك المصادر التى لايسهل التحكم فيها، أو السيطرة عليها، أو تداولها، أو استنساخها، وهى تلك المصادر التى لا تسفر عن أى شكل من أشكال التسجيل المقروء أو المسموع أو المرئى[٥].

وإذا كانت المعلومات تنتقل فى إطار الاتصال العلمى من مصادرها أو مؤلفيها، إلى المتلقين أو المستفيدين منها عن طريق هذه القنوات؛ فإن المستفيدين هم مجموعة من الأفراد الذين يحرصون على الإطلاع على نتائج بحوث السابقين المشاركين لهم فى مجالات اهتماماتهم واستيعابها. ومن بين هؤلاء المستفيدين مَنْ يضطلع بمهام إنتاج المعلومات؛ إذ ليس كل المستفيدين من المعلومات منتجين لها. ويعنى ذلك أن هناك من بين هؤلاء المستفيدين مَنْ يحرص على تسجيل خبراته ومانتج

عن استيعابه للمعلومات التى انتقلت إليه عن طريق هذه القنوات. إلا أن تسجيل هذه الخبرات وتنظيمها فى حد ذاته لا يعد اتصالا علميا؛ فلا أثر لهذه الخبرات عند مجتمع المستفيدين إذا لم تتوافر هذه الخبرات فى شكل مناسب يمكن بثه ونشره على نطاق واسع[٦]، وحتى يتسنى لهؤلاء المستفيدين من هذه الخبرات التعرف عليها.

وإذا كان العصر الحاضر يوفر المعلومات فى أوعية مختلفة الأشكال كالكتب، والدوريات، والمواد المسموعة والمرئية وغيرها؛ فإن الكتاب المخطوط كان إلى ما قبل ظهور الطباعة الوعاء الوحيد الذى حمل أمانة نقل المعلومات من مؤلفيها إلى المستفيدين منها.

وفى عصر من أزهى عصور الحضارة لعبت الكتب دوراً بارزاً فى حمل هذه الأمانة، وقد توافر لها من مقومات النشر ما مكنها من تأدية هذه الأمانة على خير وجه. وهى مقومات ضارعت مقومات العصر الحاضر مع اختلاف التقنيات، واختلاف أساليب الأداء. فلقد أدرك المسلمون الأوائل أهمية النشر فى توصيل العلم إلى أهله، ونقرأ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم: ألا أخبركم عن أجود الأجواد. قالوا: نعم يا رسول الله. قال: الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدى رجل علم علما، فنشر علمه[٧]. وقال صلى الله عليه وسلم: ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر[٨]. ولم يكن أمام ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنهم، حين أراد جمع المسلمين فى أمصار الدولة الإسلامية على قراءة واحدة للقرآن الكريم، سوى نشر نسخ من المصحف فى تلك الأمصار[٩].

وقبل نهاية القرن الأول الهجرى كتب عمر بن العزيز ثامن خلفاء بنى أمية (٩٩ ـ ١٠١هـ) إلى أبى بكر بن حزم[١٠] يقول: انظر ما كان من حديث النبى صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم ـ أى اندثار حديث النبى صلى الله عليه وسلم بسبب عدم تدوينه حتى ذلك الوقت ـ وذهاب العلماء، ولاتقبل إلا حديث النبى صلى الله عليه وسلم. ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم؛ فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا[١١]. وفيما جعل النبى صلى الله عليه وسلم من أن نشر العلم من الجود والتصدق ومالهما من أجر، وفى الطريقة التى جمع بها عثمان بن عفان رضى الله عنه المسلمين على قراءة واحدة، وفى قول عمر بن العزيز: إن العلم لا يهلك حتى يكون سرا، ما يدلنا على أهمية نشر العلم فى تلك الفترة المبكرة من عمر الحضارة العربية الإسلامية، وما حفز من بعدهم إلى الإشارة لأهمية النشر والحث عليه. فتذكر كتب الأدب والبلاغة عدة من الأقوال المأثورة عن السلف تدلنا على قيمة نشر العلم فى زمنهم. ونسوق من هذه الأقوال قول الجاحظ: العلم يقوم على خمس خصال هى: الصمت، والاستماع، والحفظ، والعمل به، ونشره[١٢]. وقول الخطيب البغدادى فيما يرويه عن بعض الحكماء: لن يصان العلم بمثل بذله، ولن تكافأ النعمة فيه نشره[١٣].

ونناقش فيما يلى الدور الذى لعبه النشر فى توفير مصادر المعلومات ممثلة فى الكتب، وفى الإفادة منها.

دَوْر النشر:

يقوم النشر فى العصر الحاضر على ثلاثة عناصر رئيسية، يأتى المؤلف فى مقدمتها إذ هو صاحب الأفكار أو المعلومات التى صاغها بخطه فى شكل كتاب أو مقال. وثانيها الطابع الذى يقوم بتحويل مخطوطة المؤلف إلى نسخ عديدة مطبوعة. وثالثها

بائع الكتب الذى يتولى تسويق هذه النسخ المطبوعة. ويضاف إلى هذه العناصر الثلاثة عنصر وسيط هو الناشر وهوالذى يقوم بالربط والتنسيق بين أطراف العناصر الثلاثة؛ بمعنى أنه يقوم بالحصول على مخطوطة الكتاب من مؤلفه، ثم يدفعها إلى الطابع، ثم يحصل من الطابع على نسخ الكتاب، فيدفعها إلى بائع الكتب الذى يتولى بيعها للمستفيدين. وفى بعض الأحيان يقوم المؤلف أو الطابع أو بائع الكتب بالدور الذى يقوم به الناشر بالإضافة إلى الدور الذى يقوم به أى منهم فى النشر.

ومهما يكن من أمر هذه العناصر التى يقوم عليها النشر فى العصر الحاضر؛ فإن ما يهمنا هو التعرف على وجود هذه العناصر فى الفترة التى ندرسها، والتعرف على الدور الذى لعبه كل عنصر منها فى نشر الكتاب بهدف توصيله إلى المستفيدين المحتملين.

أولا: المؤلفون:

لاشك أن جُلّ المؤلفين يحرصون على نقل نتائج بحوثهم إلى المشاركين لهم فى الأهتمام بمجال موضوعى معين؛ فلا قيمة لهذه النتائج إذا احتفظ بها صاحبها لنفسه، فالعلم لايقوم فى نفس كلُّ عالم، بل يكون بالتبادل والتفاهم بين العلماء[١٤]، على حد تعبير أحد مؤرخى العلوم وهو ج. د. برنال Bernal, J.D.. والتبادل والتفاهم اللذان أشار إليهما إليها، برنال يقومان على سبل الاتصال العلمى الرسمية، وغير الرسمية التى سبقت الإشارة إليها، ولا يتم تبادل المعلومات والتفاهم بين العلماء بالمعنى الذى أشار إليه برنال إلا من خلال هذه السبل، كما لا يتسنى لعالم أو باحث نقل نتائج بحوثه أو تبادلها دون نشرها سالكا قنوات الاتصال العلمى المتعارف عليها فى أوساط المشتغلين بالبحث العلمى، وراغبا فى توصيل هذه النتائج إلى المستفيدين المحتملين بهدف إشراكه له يها بغرض استيعابها والانتفاع بها. وقد أبان هذا الهدف أحد المؤلفين الذين عاشوا فى أوائل القرن الثالث الهجرى، وهو أبو عمر صالح بن إسحق الجرمى المتوفى سنة ٢٢٥هـ، وكان فقيها من أهل البصرة عالما بالنحو واللغة، فكان كلما صنف باباً من كتابه المختصر فى النحو، صلى ركعتين ودعا أن ينتفع به[١٥].

ولاشك أن أكثر المؤلفين فى ذلك الزمن كانوا يرجون لكتبهم الانشار والرواج والانتفاع بمعلوماتهم؛ فكان أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢هـ) يرجو لكتابه الذخيرة أن يجوب البلدان، وأن يحمله رفاقه فى أسفارهم، فدفعه إلى النساخ لما رأى شره أهل زمانه إلى الانتفاع به والاقتباس من فوائده[١٦]. وقد رأى ياقوت الحموى ما رآه ابن بسام من قبل فدفع كتابه معجم الأدباء إلى المستفيدين لينسخوه رغم ما وجده فى نفسه من شح بكتابه على هؤلاء المستفيدين[١٧].

وإذا كان هذا حال أكثر المؤلفين؛ فإننا نجد بعض المؤلفين يبخلون بكتبهم بعد تأليفها، يحتفظون بها، ولا يدفعونها إلى النساخ حتى لا تعم الإفادة منها رغم أهميتها لدى مجتمع المستفيدين، وفى خبر أبى منصور الأزهرى مع كتاب الجيم لشمر الهروى ما يؤكد ذلك؛ فيذكر الأنبارى فى نزهة الألباء أن أبا عمرو شمر بن حمدون الهروى المتوفى سنة ٢٥٥هـ قد ألف كتابا كبيراً فى اللغة، ورتبه على حروف المعجم، وبدأه بحرف الجيم، ولما أكمل الكتاب بخل به فلم يسمح لأحد من أصحابه بنسخه، فضاع الكتاب ولم يبق منه إلا صفحات وصلت إلى أبى منصور الأزهرى اللغوى صاحب

كتاب تهذيب اللغة فقال: تصفحت من كتاب شمر تفاريق أجزاء، فوجدتها على غاية من الكمال، والله عز وجل يغفر لنا ولأبي عمر ـ يعنى شمر ـ زلله؛ فإن الضن بالعلم غير محمود ولا مبارك فيه[١٩]. وفى ذلك المعنى قال سفيان الثورى: من بخل بعلمه ابتلى بثلاث؛ إما يسناه ولا يحفظ، وإما أن يموت ـ أى ذلك العلم وإما أن تذهب كتبه[٢٠]، فلا يستفاد منها.

وبديهى أن كتاب الجيم وغيره من الكتب التى يبخل أصحابها بدفعها إلى النساخ لا ينتفع بها بخلاف الكتب التى ذاعت شهرتها وتداولتها أيدى الناس وأيدى الأيام. ولايخلو تراثنا من إشارات إلى مثل هذه الكتب التى ذاعت شهرتها مخلدة أسماء مؤلفيها على الألسنة؛ فيعرف ياقوت الحموى كتاب الصحاح للجوهرى بقوله: وهذا الكتاب هو الذى بأيدى الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، فهو أحسن من كتاب الجمهرة لابن دريد، وأوقع من كتاب تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى. كما يصف ياقوت كتاب شرح الجرمى لابراهيم بن على الفارسى النحوى بأنه كتاب معروف متداول بأيدى الناس[٢١]. ومن مثل هذه الكتب كتاب المختصر الصغير فى الفقه الشافعى ألفه إسماعيل بن إبراهيم المزنى صاحب الإمام الشافعى، وهو كتاب عرّفه ابن النديم فى الفهرست بقوله: وهو الكتاب الذى بيد الناس، وعليه يعول أصحاب الشافعى، وله يقرءون، وإياه يشرحون[٢٢].

ويبدو لنا أن مثل هذه الكتب كانت تلقى من الشهرةوالانتشار مستندة إلى شهرة مؤلفيها أنفسهم، وإلى مكانتهم فى المجال الذى يؤلفون فيه، أو لاستيفائها الموضوع الذى تتناوله؛ فيذكر ياقوت الحموى أن على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجانى قد أحسن وأبدع وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العربية... وقوة النقد فى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره. وقد كان ذلك سببا فى انتشار هذا الكتاب الذى عبّر عنه ياقوت الحموى بقوله: فسار الكتاب مسير الرياح وطار فى البلاد بغير جناح[٢٣]. وكما وصف ياقوت كتاب الوساطة وانتشاره، وصف لنا مؤلفا من ذوى الإنتاج الفكرى الغزير، مشيرا إلى مكانته بين المؤرخين، واصفا كتبه وانتشارها بقوله: ومحمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧هـ) ممن طبق ذكره الأرض، شرقها وغربها، ولم يخف على أحد عرف الأخبار أمره... وسارت الركبان بكتبه فى فنون العلم والمغازى والسير والطبقات وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم[٢٤].

ولم يقتصر دور المؤلفين فى النشر على إتاحة مؤلفاتهم ونتائج بحوثهم للمستفيدين والرغبة فى انتشارها والإفادة منها، بل امتد دورهم ـ باعتبارهم فئة من المستفيدين ـ إلى المساهمة فى التعريف بكتب غيرهم من المؤلفين المشاركين لهم فى اهتماماتهم الموضوعية وانتشارها. فيذكر ياقوت الحموى أن جودى بن عثمان النحوى المتوفى سنة ١٩٨هـ رحل إلى المشرق ولقى الكسائى والفراء وغيرهمامن علماء اللغة، وكان أول من أدخل كتب الكسائى إلى المغرب العربى[٢٥]. ويذكر ابن أبى أصيبعة أن أبا الحكم عمرو بن أحمد بن على الكرمانى[٢٦] (ت ٤٥٨هـ) رحل إلى ديار المشرق، وعنى بطلب الهندسة، ولما رجع إلى الأندلس جلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا، ولا نعلم ـ والكلام لابن أبى أصيبعة ـ أحداً أدخل هذه الرسائل الأندلس قبل الكرمانى[٢٧].

ثانيا: الوراقة:

لسنا فى حاجة للإشارة إلى أنه لابد من توافر الكتاب فى نسخ متعددة حتى يتسنى للمستفيدين

الحصول على نسخ منه، وإلا كانت الإفادة من هذا الكتاب محدودة. فإن إتاحة المؤلف كتابه للمستفيدين، ورغبته فى انتشاره لا يكفيان ما لم تتوافر مقومات نسخه فى نسخ متعددة حتى تعم الإفادة منه.

وإذا كانت المطابع فى العصر الحاضر تقوم بمهمة توفير الكتاب الواحد فى نسخ متعددة؛ فإن الوراقة فى عصر ما قبل الطباعة كانت تضطلع بهذه المهمة. والوراقة كما عرّفها ابن خلدون فى مقدمته[٢٨] هى انتساخ[٢٩] الكتب، وتصحيحها وتجليدها، وسائر الأمور المتعلقة بالكتاب. وكان المشتغلون بالوراقة يعرفون بالوراقين.

ولقد اتخذ بعض المؤلفين وراقين لكتبهم وكتب غيرهم، كما اشتغل بعض المؤلفين بالوراقة. ونستطيع من خلال تقسيمنا الوراقين إلى فئات أن نتعرف على دورهم ودور الوراقة فى توفير الكتب فى نسخ متعددة وإتاحتها للمستفيدين. ويمكن أن نقسم هؤلاد الوراقين إلى ثلاث فئات حدثتنا عنها كتب التراث:

أ ـ الوراقون المحترفون:

هم جماعة من الناس اتخذوا من الوراقة حرفة يرتزقون منها، عن طريق بيع نسخ الكتب التى يكتبونها بأيديهم. ومن هؤلاء الحسن بن شهاب العكبرى (ت ٤٢٨هـ) الذى يقول عن نفسه: كسبت فى الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية؛ فكنت اشترى كاغداً بخمسة دراهم، فأكتب فيه ديوان المتنبى فى ثلاث ليال، وأبيعه بمئتى درهم، وأقله بمئة وخمسين درهما، وكذلك كتب الأدب المطلوبة. وكان أبو القاسم بن بنت منيع من هؤلاء الوراقين، فيروى أنه ذهب يوما إلى سعيد بن يحى بن سعيد الأموى يسأله الجزء الأول من كتاب المغازى الذى ألفّه ابن اسحق المؤرخ لينسخه، فأعطاه له، فطاف أبو القاسم به، وبدأ بأبى عبد الله بن مغلس وأراه الكتاب، فدفع إليه عشرين دينارا على أن يكتب له أبو القاسم نسخة، ثم طاف بعده بقية يومه، فلم يزل يأخذ من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير وأكثر وأقل إلى أن حصل معه فى ذلك اليوم مئتا دينار، فكتب نسخا لأصحابها بشئ يسير من ذلك واستفضل الباقى[٣٠]. وكان محمد بن عبد الله بن موسى (ت ٣١٩هـ) مليح الخط، صحيح النقل يورق بالأجرة[٣١]. وإذن فإن من الوراقين المحترفين من يحرص على نسخ الكتب الرائجة كابن شهاب العكبرى، ومنهم من ينسخ الكتب حسب طلب المستفيدين كابن بنت منيع.

ب ـ وراقو المؤلفين:

وهم الوراقون الذين كانوا ينسخون الكتب لمؤلفين بعينهم، وكانوا يعملون تحت أيديهم، حتى أن بعض هؤلاء الوراقين عرفوا بأسماء المؤلفين الذى يورقون كتبهم. ومن وراقى هذه الفئة زكريا بن يحى الذى اتخذه الجاحظ وراقا حتى أنه عرف باسم وراق الجاحظ[٣٢]. ومنهم حسنويه، ونفطويه، وسلمون الذين كانوا يورقون للكندى[٣٣]. واسماعيل بن أحمد الزجاجى، وإبراهيم بن محمد الشاشى اللذان كانا يورقان للمبرد[٣٤]. وأبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول الذى كان وراق حنين بن إسحق فى ترجماته لكتب علوم الأوائل[٣٥]. كما اتخذ الواقدى كاتبا له هو محمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى، وقد عرف ابن سعد فيما بعد باسم كاتب الواقدى[٣٦]. وكان ثابت بن عبد العزيز اللغوى يورق لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)[٣٧].

ويبدو لنا أن استئثار بعض المؤلفين بوراقين معينين، يرجع إلى أن هؤلاء المؤلفين كانوا غزيرى التأليف، غزيرى الاطلاع كالجاحظ، والكندى، والمبرد، والواقدى، وأبى عبيد القاسم بن سلام، ومن ثم

كانوا فى حاجة إلى مَنْ ينسخ كتبهم، والكتب التى يحتاجون إلى الاطلاع عليها.

وكان بعض المؤلفين لا يكتفون بوراق واحد لنسخ أحد كتبهم، فكان يعقوب بن شيبة السدوسى[٣٨] (ت ٢٦٢هـ) يعد فى منزله أربعين لحافاً لمن كان يبيت عنده من الوراقين لتبييض كتابه المسند ونقله[٣٩].

جـ - المؤلفون الوراقون:

وهم جماعة من المؤلفين آثروا أن ينسخوا كتبهم، والكتب التى يجدون فى أنفسهم حاجة إليها. وقد جمع هؤلاء المؤلفون بين تصنيف الكتب وحرفة الوراقة والنسخ. فكان لأبى القاسم الحارث بن على وهو من وفيات القرن الرابع الهجرى تأليف محكم وكتب جيدة مشهورة، ذكر منها ابن النديم تسعة كتب، وكان أبو القاسم المذكور وراقا يبيع الكتب ويورق للناس[٤٠]. وكان الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ) ممن اشتغل بالتصنيف والنسخ؛ فكان يكتب فى كل سنة كتاب إقليدس فى الهندسة، وكتاب المجسطى لبطليموس ويبيعهما وبقتات من ذلك الثمن، ولم تزل هذه حاله إلى أن توفى[٤١]. وكان السرى بن أحمد الرفاد (ت ٣٦٠هـ) شاعرا وأديبا، وكان يورق شعره ويبيعه، ثم ورّق لغيره بالأجرة[٤٢]. ويذكر ابن أبى أصيبعة أن ما وجد من خط موفق الدين عبد اللطيف البغدادى المعروف بابن اللباد (ت ٦٢٩هـ) أشياء كثيرة جدا، بحيث أنه كتب من مصنفاته نسخاً متعددة، وكتب كتبا كثيرة من تصانيف القدماء[٤٣]. وكان لبعض المؤلفين صبر على النسخ يثير العجب، فكان ابن النديم يتعجب من كثرة ما نسخ يحى بن عدى. فقال له ابن عدى: من أى شئ تعجب فى هذا الوقت من صبرى وقد نسخت بخطى نسختين من تفسير القرآن للطبرى، وحملتها إلى ملوك الأطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لايحصى. ولعهدى بنفسى وأنا أكتب فى اليوم والليلة مئة ورقة وأقل[٤٤]. ولكى نقف على صبر يحى بن عدى على النسخ نذكر أن تفسير الطبرى كان يقع فى ثلاثة آلاف ورقة وقت تأليفه[٤٥].

وكان إلى جانب هذه الفئات الثلاث من الوراقين فئة رابعة تضم الوراقين العاملين فى المكتبات الكبرى، وكانت مهتمهم توفير نسخ من الكتب تزود بها هذه المكتبات لخدمة أصحابها ومن يفدون عليهم من العلماء والأدباء والمتكلمين وغيرهم. فكان علان الشعوبى ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون[٤٦]. وكان صفى الدين عبد المؤمن ناسخا بمكتبة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ)[٤٧]. ومنهم جماعة الوراقين الذين كانوا ينسخون بمكتبة الراضى بالله (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)[٤٨].

هذه هى فئات الوراقين الذين قاموا بالدور الذى تقوم به المطابع فى العصر الحاضر وبالطبع فإننا لا نستطيع أن نقطع بأن الوراقين الذين ينتمون إلى إحدى هذه الفئات كانوا يعملون فى حدود هذه الفئة فحسب، فقد مر بنا أنه من الممكن أن يتكسب المؤلفون من الوراقة كالوراقين المحترفين غير أن لهم مؤلفات، كما أنه من الممكن أن ينسخ وراقو المؤلفين كتبا لأشخاص آخرين وهكذا.

بقى أن نشير إلى أن هنا صفات وجب أن يتحلى بها الوراقون، وهى حسن الخط، ودقة الضبط، وصحة النقل. وكانت هذه الصفات سببا فى إقبال الناس على اقتناء الكتب التى يتسم ناسخوها بهذه الصفات. وقد ذكر لنا ابن النديم عدداً من هؤلاء الوراقين، فكان محمد بن عبد الله بن موسى الكرمانى مليح الخط، صحيح النقل، وكان الناس

يرغبون فى خطه. وكان أبو عبد الله أحمد بن إسحق ممن يرغب فى خطه لجودته[٤٩]. وكان أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الله القرشى (ت ٣٥٠هـ) يوصف بأنه صاحب الخط الحسن المشهور، وكان ثقة مأمونا يورق للناس بدمشق[٥٠]. وكان أحمد بن أخى الشافعى وراق الجهشيارى من الوراقين الذين يفتخر العلماء بالنقل من خطهم، وذلك لاتقان ضبطه[٥١]. وكان أحمد بن عبد الخالق الدينورى المعروف بابن الخازن (ت ٥١٨هـ) حسن الخط، كتب من المقامات نسخاً كثيرة كانت متداولة بأيدى الناس[٥٢]. وكان أبوالعباس أحمد بن عبد الله بن هشام اللخمى الفاسى (ت ٥٦٠هـ) جيد الخط، حسن الضبط، نسخ بخطه كثيرا من كتب الأدب وغيرها، وكانت الكتب التى توجد بخطه مرغوبا فيها[٥٣].

ثالثا: بائعوا الكتب:

وهم الطرف الثالث المشارك فى نشر الكتب، وكان يشاركهم الوراقون فى بيع وتسويق نسخ الكتب. وكانت أعمال بيع وشراء الكتب تدور فى أسواق عرفت فى تراثنا بأسواق الكتب وأسواق الوراقين، وكانت الكتب تباع وتشترى فى هذه الأسواق كسائر السلع فى الأسواق الأخرى. ومن أشهر أسواق الكتب وأسواق الوراقين سوق الكتب والوراقين ببغداد، وسوق الكتب بالبصرة وقرطبة[٥٤]، وسوق الوراقين فى الفسطاط على عهد الطولونيين والإخشيديين[٥٥].

وكان المهتمون بالإنتاج الفكرى من المؤلفين والعلماء والوراقين يؤمون هذه الأسواق. فكان يحى ابن محمد الأرزنى الوراق (ت ٤١٥هـ) يخرج إلى سوق الكتب ببغداد ليبيع نسخ الكتب يورقها[٥٦]. وكان ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة. والعباس بن الفرج بن على الرياشى اللغوى ممن يقدمون على سوق الوراقين بالبصرة[٥٧].

وكان بعض الوراقين يتخذون حوانيتا فى هذه الأسواق يؤجرونها لمن شاء من الأدباء والعلماء، وفيها يتجرون فى الكتب. ومشهور عن الجاحظ أنه كان يكترى دكاكين الوراقين وهى عامرة بالكتب ويبيت فيها للقراءة[٥٨]. وقد بلغ عدد حوانيت الوراقين فى ناحية من نواحى بغداد هى ربض وضاح أكثر من مئة حانوت[٥٩].

وكانت أسواق الكتب من الأماكن التى يحثون على قصدها، ونقرأ ذلك فى قول الشاعر[٦٠]

مجالسة السوق مذمومة وفيها مجالس تستحب
فلا تقصدن غير سوق الدواب وسوق السلاح وسوق الكتب

ومن الطريف أن نذكر أن بعض مرتادى هذه الأسواق كانوا يحتالون لشراء الكتب بثمن بخس، فكان مسبحى بن أبى البقاء المعروف بابن العطار (ت ٦٨٠هـ) إذا وقعت فى يده نسخة من كتاب وخشى المزايدة فيه يخرمه[٦١] لتنقص قيمته ويبتاعه، واشتهر هذا عنه فيما ذكر القفطى[٦٢].

ولم يقتصر العمل فى هذه الأسواق على الوراقين وبائعى الكتب، وإنما كانت هناك فئة ثالثة ساهمت فى الأعمال الدائرة فى هذه الأسواق. وكان المنتمون لهذه الفئة يسمون دلالى الكتب. وكانت وظيفتهم النداء على الكتب للجمع بين البائع والمشترى؛ فيذكر لنا ياقوت الحموى أن نسخة كتاب الأغانى بيعت فى النداء بعشرة آلاف درهم، وبيعت مسودة الكتاب نفسه بأربعة آلاف درهم. ويذكر ابن الفوطى أن أحمد بن أبى السعود الرصافى نسخ كتاب نهج البلاغة بخطه، ونادى عليه ليباع، فدفع له فيه خمسة دنانير فلم يبعه[٦٥]. وربما جمع أحد

الدلالـين بين التأليف والوراقة والنداء على الكتب؛ فيذكر ابن خلكان[٦٦] أن أبا المعالى سعد بن على بن القاسم (ت٥٦٨هـ) كان شاعراً وأديباً من أهل بغداد، وكان وراقا يعرف باسم دلال الكتب. ويذكر الزركلى[٦٧] أن لأبى المعالى المذكور مؤلفات منها زينة الدهر جعله ذيلا لكتاب دمية القصر للباخرزى.

وكان يحق للدلال ألا يبيع كتب الدِّين لمن يعلم أنه يضيعها، أو ينظرها لينتقدها والطعن عليها، وألا يبيع شيئا من كتب أهل البدع والأهواء، وكتب المنجمين، والكتب المكذوبة، ولا يحل له أن يبيع كافرا، لا المصحف ولا شيئا من كتب الحديث أو الفقه على ماذكر السبكى[٦٨]، وكان ذلك من آداب الدلالة وآداب تجارة الكتب.

ولم تقتصر تجارة الكتب على الفئات السابقة فحسب، بل كان بعض المؤلفين يتخذون من تجارة الكتب وسيلة للكسب، فكان ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) يصحب فى رحلاته من كتب العلم ما يتاجر فيه[٦٩].

هذه هى الأطراف الثلاثة التى قام عليها نشر الكتب فى تراثنا العربى الإسلامى خلال عصر من أزهى عصورالحضارة، وهذه هى الأدوار التى لعبتها فى إمداد المستفيدين بمصادر المعلومات. ونستطيع أن نصور دور كل منها فى نشر الكتب بالشكل رقم (١) كما نستطيع أن نوجز هذه الأدوار فنقول؛ كان المؤلفون يحرصون على إتاحة نتائج بحوثهم للمستفيدين المحتملين رغبة منهم فى تعريف المشاركين لهم فى مجالات اهتماماتهم بهذه النتائج، فبعد انتهاء المؤلف من تصنيف أحد كتبه دفع به إلى الوراقين لنسخه وقام الوراقون بفئاتهم المختلفة بدور المطابع فى العصر الحاضر، فعملوا على توفير الكتاب فى نسخ متعددة لمن يحتاج إليها، كما شارك الوراقون بائعى الكتب ودلالى الكتب فى توصيل هذه الكتب إلى المستفيدين. ولولا حرص المؤلفين على بث نتائج بحوثهم، لانعدمت الإفادة منها. ولولا توافر الكتب فى نسخ متعددة عن طريق الوراقين والنساخ، لكانت الإفادة منها محدودة. ولولا توافر أسواق الكتب، وأسواق الوراقين، ومن يعملون فيهما من بائعين ودلاليين، لكدّ المستفيدون فى طلب مصادر المعلومات، ولصعب عليهم نوالها.

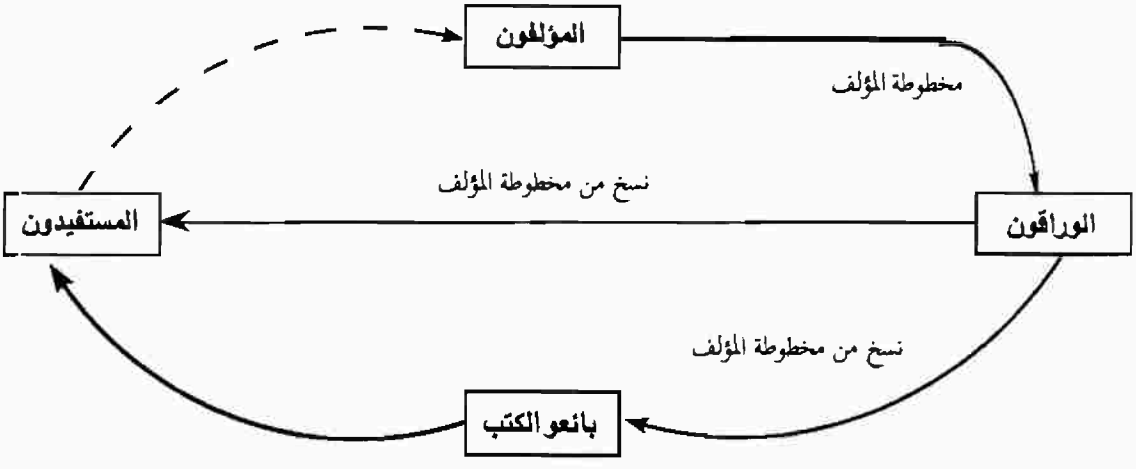

شكل رقم (١)

دور المؤلفين والوراقين وبائعى الكتب فى النشر

الهوامش:

١ ـ ميدوز، جاك. آفاق الاتصال ومنافذه فى العلوم والتكنولوجيا. ترجمة حشمت قاسم. القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٩.

٢ ـ جارفى، وليم. الاتصال أساس النشاط العلمى. ترجمة حشمت قاسم. بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٤.

٣ ـ حشمت قاسم. المكتبة والبحث. القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٨٣: ص ٥٧.

٤ ـ حشمت قاسم. مصادر المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبات. ط٢. القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٨٨: ص ٢١.

٥ ـ حشمت قاسم. المكتبة والبحث. مصر سابق: الصفحة نفسها.

٦ ـ لانكستر، ولفرد. نظم استرجاع المعلومات. ترجمة حشمت قاسم. القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٨١: ص ٢٣، ٢٤.

٧ ـ ابن عبد البر. جامع بيان العلم. القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٦هـ : حـ ١، ص ١١٩.

٨ ـ الهيثمى. مجمع الزوائد. بيروت مؤسسة المعارف ١٩٨٦: حـ ١، ص ١٧١.

٩ ـ وقصة ذلك أن حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه لما قدم من العراق على عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ـ وكانوا قد اختلفوا فى قراءة القرآن ـ وكانت صحف القرآن قد جمعت على عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وقد ظلت هذه الصحف عند أبى بكرحتى وفاته، ثم عند عمر بن الخطاب، ثم انتهت فى زمن عثمان بن عفان إلى حفصة بنت عمر رضى الله عنهما ـ فأرسل عثمان بن عفان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان الذى أمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضى الله عنهم فنسخوها فى المصاحف، وقال للرهط من قريش: إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شئ من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا ذلك، حتى إذا نسخ المصحف، رد الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بكل ماسواه من القرآن فى كل صحيفة ومصحف أن يحرق، وبعث مع كل مصحف صحابيا يعلم الناس القراءة الصحيحة. انظر: إبراهيم الإبيارى. تأريخ القرآن. طـ ٣ مزيدة ومنقحة. القاهرة، دار الكتاب المصرى، ١٩٩١ : ص ١٠٢.

١٠ ـ أبو بكر بن حزم شيخ من شيوخ المحدثين، وكان نائب عمر بن عبد العزيز فى الإمرة والقضاء على المدينة.

١٣ ـ الخطيب البغدادى. تقييد العلم. صدره وحققه يوسف العش. دمشق، المعهد الفرنسى للدراسات العربية، ١٩٤٩ : ص ١١٨.

١٤ ـ برنال، د. رسالة العلم الاجتماعية. ترجمة إبراهيم حلمى عبد الرحمن. القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٤٩ : ص ٣٧٢.

١٥ ـ الأنبارى. نزهة الألباء. د.م.، د.ن.، ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧م : ص ١٩٩. وقد ذكر ابن النديم فى فهرسته كتاب أبى عمر الجرمى بعنوان مختصر نحو للمتعلمين. أنظر: ابن النديم. الفهرست؛ دراسة بيوجرافية... وتحقيق ونشر شعبان خليفة، ووليد محمد العوزة. القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١ : جـ ١، ص ٩٣.

١٦ ـ ابن بسام الشنترينى. الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس. بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٩ : جـ ١، ص ٢١. وابن بسام أديب أندلسى.

١٧ ـ ياقوت الحموى. معجم الأدباء. ط ٢. راجعها إبراهيم اليازجى وآخرون. القاهرة، دار المأمون، ١٩٣٦ : جـ ١، ص ٨٥.

١٨ ـ لغوى وأديب من أهل هراة بخراسان.

١٩ ـ الأنبارى. مصدر سابق: ص ٢٦٠.

٢٠ ـ الخطيب البغدادى. الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع. الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ : جـ ١، ص ٢٤٠.

٢١ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ٦، ص ١٥٥؛ جـ ١، ص٢٠٤.

٢٢ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١، ص ٤٣٩.

٢٣ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ١٤، ص ٢٤، ٢٥.

٢٤ ـ المصدر السابق: جـ ١٨، ص ٢٧٨.

٢٥ ـ المصدر السابق: جـ ٧، ص ٢١٣.

٢٦ ـ جراح عالم بالطب والهندسة من أهل قرطبة.

٢٧ ـ ابن أبى أصيبعة. عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. شرح وتحقيق نزار رضا. بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥ : ص ٤٨٤، ٤٨٥.

٢٨ ـ ابن خلدون. المقدمة. تحقيق على عبد الواحد وافى. ط ٣ مزيدة ومنقحة. القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٩ : جـ ٢، ص ٩٧٤.

٢٩ ـ يذكر أبو هلال العسكرى أن النسخ هو نقل معانى الكتاب، وأصل النسخ هو الإزالة، ومنه نسخت الشمس الظل. وإذا نقلت معانى الكتاب إلى آخر فكأنك أسقطت الأول وأبطلته، وذلك لتطابق النسختين. أنظر: أبو هلال العسكرى. الفروق اللغوية. ضبطه وحققه حسام الدين القدسى. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت: ص ٢٤٠.

٣٠ ـ الخطيب البغدادى. تاريخ بغداد. القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٣١ : جـ ٧، ص ٣٢٩؛ جـ ١٠، ص ١١٣.

٣١ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ١٨، ص ١٢٥.

٣٢ ـ المصدر السابق: جـ ١٦، ص ١٠٦.

٣٣ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١، ص ٥٢٩.

٣٤ ـ المصدر السابق: جـ ١، ص ٩٩.

٣٥ ـ المصدر السابق: جـ ١، ص ١٣٦.

٣٦ ـ ابن سعد. الطبقات الكبرى. بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ : جـ ١، ص ٦.

٣٧ ـ السيوطى. بغية الوعاة... تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ١. القاهرة، مطبعة عيسى البابى الحلبى، ١٩٦٤ : جـ ١، ص ٤٨١.

٣٨ ـ أحد كبار علماء الحديث، وكان يتفقه على مذهب الإمام مالك.

٣٩ ـ الخطيب البغدادى. تاريخ بغداد. مصدر سابق: جـ ١٤، ص ٢٨١.

٤٠ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١، ص ٣٥٥.

٤١ ـ القفطى. تاريخ الحكماء... القاهرة، مؤسسة الخانجى، ١٩٠٣ : ص ١٦٧.

٤٢ ـ الخطيب البغدادى. تاريخ بغداد. مصدر سابق: جـ ١، ص ١٩٤.

٤٣ ـ ابن أبى أصيبعة. مصدر سابق: ص ٦٨٣.

٤٤ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١٨، ص ٤٢.

٤٥ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ١٨، ص ٤٥.

٤٦ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١، ص ١٨٨.

٤٧ ـ ابن شاكر الكتبى. فوات الوفيات. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١ : جـ ١، ص ٤٩٦.

٤٨ ـ الصولى، أبو بكر. أخبار الراضى بالله... من كتاب الأوراق. القاهرة، مطبعة الصاوى، ١٩٣٥ : ص ٤٩.

٤٩ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

٥٠ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ٤، ص ٢٣٨.

٥١ ـ المصدر السابق: جـ ٢، ص ١٣٧.

٥٢ ـ ابن خلكان. وفيات الأعيان. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. طـ ١. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص ١٩٤٨ : جـ ١، ص ١٣١.

٥٣ ـ المصدر السابق: جـ، ص ١٥٢.

٥٤ ـ أشار المقرى إلى سوق الكتب بقرطبة فى كتابه نفح الطيب. انظر الكتاب جـ ٤، ص ١١٣، ١١٤ طبعة دار المأمون بالقاهرة، ١٩٣٦.

٥٥ ـ محمد فتحى عبد الهادى. دراسات فى الضبط الببليوجرافى. القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٨٧ : ص ٨٧.

٥٦ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ٢٠، ص ٣٤، ٣٥.

٥٧ ـ ابن النديم. مصدر سابق: جـ ١، ص ٩٥.

٥٨ ـ المصدر السابق: جـ ١، ص ٣٣٥.

٥٩ ـ اليعقوبى. كتاب البلدان. ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٢ : ص ١٤٥.

٦٠ ـ الخطيب البغدادى. تقييد العلم. مصدر سابق: ص ١٢٥.

٦١ ـ أى نزع بعض أوراقه.

٦٢ ـ القفطى. مصدر سابق: ص ٣٣٢.

٦٣ ـ الدّلالة: اسم لعمل الدلال، وهو من ينادى على السلعة جامعا البائع بالمشترى.

٦٤ ـ ياقوت الحموى. مصدر سابق: جـ ١٣، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

٦٥ ـ ابن الفوطى. الحوادث الجامعة... بغداد، المكتبة العربية، ١٩٣٢ : ص ١٨، ١٩.

٦٦ ـ ابن خلكان. مصدر سابق: جـ ٢، ص ١٠٩.

٦٧ ـ خير الدين الزركلي. الأعلام. طـ ٢. القاهرة، مطبعة كوستاتسوماس، ١٩٥٥ : جـ ٣، ص ١٣٦.

٦٨ ـ السبكي، عبد الوهاب. معيد النعم ومبيد النقم. حققه وضبطه وعلق عليه محمد النجار وآخرون. طـ ١. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٤٨ : ص ١٤٣.

٦٩ ـ ياقوت الحموي. مصدر سابق: جـ ١٦، ص ٢٢٥.